

من الميثاق الوطني إلى الرؤية الاستراتيجية ... مسار إصلاح التعليم أم مسار تضليل للمغاربة؟؟

مكثنا أن نتحدث عن بداية حقيقة لمسلسل إصلاح التعليم بالمغرب مع إطلاق الميثاق الوطني للتربية والتقويم سنة 1999، والتي هي بداية حكم الملك محمد السادس، ميثاق حددت له عشرية 2010 لإعلان نتائجه، فترة لم يتطرق القائمون على شأن التعليم نهايتها للإعلان الصريح سنة 2008 عن فشله في وضع قاطرة التعليم بالمغرب على سكته الصحيحة. بعد إعلان الفشل رسميًا استبشر المعنيون مباشرة بشأن بالتعليم في المغرب بإعلان الوزارة الوصية على المخطط الاستعجالي 2009/2012 لإنقاذ المدرسة العمومية، والذي أطلق في نفس السنة بناء على تقارير المجلس الأعلى للتعليم، المخطط لقي نفس مصير الميثاق وأعلن سنة 2012 عن فشله رغم شعار "مدرسة النجاح" الذي رفعه والثلاثين مليار درهم التي خصصت لتنزيهه على أرض المدرسة المغربية وبما أن "مغاربة على بابا" مفتوحة ومفتاحها بين يدي الدولة فإن الوزارة الوصية لا تمل من تكرار المحاولة ولا تدخر جهدا إلى حين "إنقاذ" المدرسة العمومية من الانهيار والتلاشي، لهذا عقد المجلس الأعلى للتعليم بكل فسيفسائه اجتماعات ولجان ومشاورات دامت سنة كاملة، انبثق عنها ما أسماه مجلس عزيzman بالرؤية الاستراتيجية لإصلاح المدرسة المغربية 2015/2030، رؤية جعلت الرفع من جودة أداء الفاعلين التربويين على رأس أولوياتها الكفيلة بالنهوض بأداء المدرسة المغربية، وأكدت على ضرورة انخراط جميع الفاعلين لتقليص أو إغلاق الفجوة القائمة بين التنظير والتفعيل؛ كذلك ابتكار الحلول العملية والفعالة لتحقيق الإصلاح المنشود، ولتكون الرؤية الاستراتيجية ملزمة للحكومات المغربية كييفما تلونت سياسيا فقد وضع لها مجلس عزيzman إطارا قانونيا ينتظر الدخول السياسي الجديد لصدوره...

الأسباب التقنية والبشرية والأخلاقية التي أدت إلى فشل الميثاق أو المخطط الاستعجالي أسالت الكثير من مداد المتخصصين والأكاديميين المحايدين؛ دون أن تسمع لهم الدولة صوتا أو تكررت لتبنيهما لمكمن الخلل، صمت آذانها عن جرس الإنذار الذي أطلقوه ولم تكن تسمع إلا لمن يدور في فلكها، واحتكرت الحل والعقد في ملف على قدر عال من الخطورة، فبصفتها الطرف الأقوى في عملية التعليم كانت الدولة جزءا من المشكلة لكن حلولها لم تكن حلولا بقدر ما كانت مبادرات للتغطية على هذه المشاكل/الكوارث وإذا كان المقام هنا لا يتسع للخوض في تفاصيل أسباب الفشل التي أقربت الميثاق والمخطط الاستعجالي وأقربت معهما ملابير الدر衙م، وأحلام وأمال المغاربة في تعليم عمومي بجودة تضمن لهم كرامة ومستقبل أبنائهم؛ فهو يتسع للتأكيد على أن هذه المشاريع الإصلاحية فشلت لأن الإرادة السياسية كانت غائبة تماما لدى الدولة وهي تضع هذه المخططات الإصلاحية لإنقاذ التعليم، فلو كانت هذه الإرادة حاضرة؛ واستحضر المستغلون على هذه الخطط الضمير الحي بدل الميت وحسهم الوطني بدل حسهم المالي/النفعي، ولو كانت الدولة مستقلة تماما عن ضغوط المؤسسات المالية الدولية وضغوط أباطرة/لوبى التعليم الخصوصي بالمغرب؛ لكانـت هذه المخططات صيغت بشكل آخر تماما وضمنت على الأقل حدا أدنى من جودة التعليم العمومي الذي يطمح إليه المغاربة، والذي يجنبهم الـوقوع في شرك التعليم الخاص الذي يحلب جيوبهم ويـشـحـنـ أـدـمـغـةـ أـبـنـائـهـ بـمـاـ يـنـاسـبـ وـلـاـ يـنـاسـبـ،ـ لـمـ جـعـلـهـمـ يـشـعـرـوـنـ بـالـغـبـنـ وـهـمـ يـؤـدـوـنـ الضـرـائـبـ وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ يـتـدـبـرـوـنـ أـمـرـ مـيـزـانـيـةـ أـخـرـىـ لـتـعـلـيـمـ أـبـنـائـهـ فـيـ الـقـطـاعـ الـخـاصـ

نـحنـ هـنـاـ أـمـامـ تـلـاـعـبـ خـطـيـرـ بـمـسـتـقـبـلـ وـبـأـرـازـاقـ الـمـغـارـبـ؛ـ أـمـامـ أـكـبـرـ جـرـمـ يـمـكـنـ أـنـ تـرـكـبـهـ دـوـلـةـ تـحـترـمـ نـفـسـهـاـ فـيـ حـقـ شـعـبـ لـاـ يـطـلـبـ سـوـىـ حـدـاـ أـدـنـىـ مـنـ حـقـوقـهـ،ـ فـكـيـفـ يـمـكـنـ أـنـ يـشـعـرـ مـوـاطـنـ رـأـسـهـ بـيـنـ مـطـرـقـةـ الـدـوـلـةـ وـسـنـدـانـ الـمـدـرـسـةـ الـخـصـوصـيـةـ؟ـ أـلـنـ يـشـعـرـ بـالـغـبـنـ وـالـاحـتـقـارـ وـهـوـ الـذـيـ وـضـعـ رـقـبـتـهـ وـمـسـتـقـبـلـ أـبـنـائـهـ فـيـ يـدـ مـؤـسـسـاتـ لـاـ تـقـنـ سـوـىـ "ـفـنـ الـحـلـبـ"ـ؟ـ؟ـ كـيـفـ سـيـحـتـرـمـ حـكـوـمـةـ تـعـتـرـفـ الـتـعـلـيـمـ قـطـاعـ "ـغـيـرـ مـنـتجـ"ـ،ـ وـغـسـلـتـ يـدـهاـ مـنـ كـلـ مـاـ هـوـ اـجـتـمـاعـيـ عـوـضـ الـقـيـامـ بـوـاجـبـهاـ وـتـدـبـيـرـ مـلـفـ الـتـعـلـيـمـ كـمـاـ يـلـيقـ بـدـوـلـةـ تـقـوـلـ أـنـهـاـ وـضـعـتـ قـدـمـهـاـ عـلـىـ سـكـةـ الـدـيمـقـرـاطـيـةـ؛ـ وـوـقـعـتـ عـدـدـاـ مـنـ اـتـفـاقـيـاتـ فـيـ مـجـالـ حـقـوقـ الـإـنـسـانـ؟ـ؟ـ كـيـفـ سـيـحـتـرـمـ وـيـثـقـ فـيـ قـرـارـاتـ حـكـوـمـةـ تـضـعـ خـطـطـ إـلـاـحـ الـتـعـلـيـمـ فـقـطـ مـنـ أـجـلـ تـمـوـيـلـ الشـعـبـ وـمـنـحـهـ الـوـهـمـ بـأـنـهـ تـرـغـبـ فـيـ إـلـاـحـ الـتـعـلـيـمـ؛ـ وـهـيـ فـيـ وـاقـعـ الـأـمـرـ تـجـهـدـ فـيـ خـلـقـ وـضـمـانـ "ـبـزـوـلـةـ"ـ لـلـمـنـتـفـعـيـنـ مـنـ الـأـعـطـابـ الـتـيـ يـعـانـيـ مـنـهـاـ هـذـاـ الـقـطـاعـ؟ـ؟ـ

الـوـزـارـةـ الـوـصـيـةـ عـلـىـ الـتـعـلـيـمـ حـينـ تـقـارـبـ إـلـاـحـيـاـ هـذـاـ الـقـطـاعـ تـفـعـلـ ذـلـكـ بـعـقـلـيـةـ الـخـانـعـ لـتـوـصـيـاتـ الـدـائـنـيـنـ الـدـوـلـيـيـنـ،ـ تـفـعـلـ ذـلـكـ رـاضـخـةـ لـهـوـاـ الصـيدـ فـيـ الـمـيـاهـ الـعـكـرـةـ،ـ لـلـخـواـصـ قـنـاـصـيـ الـفـرـصـ الـذـيـنـ يـسـتـغـلـوـنـ تـأـزـمـ الـقـطـاعـ وـعـجزـ الـدـوـلـةـ وـلـهـفـةـ الـمـغـارـبـ لـتـعـلـيـمـ أـبـنـائـهـ بـشـكـلـ يـمـكـنـهـمـ مـنـ ضـمـانـ مـنـصـبـ عـلـىـ "ـمـحـترـمـ"ـ،ـ فـمـنـ يـتـابـعـ قـرـارـاتـ الـحـكـوـمـاتـ الـمـغـارـبـيـةـ مـنـذـ بـدـاـيـةـ عـشـرـيـةـ الـإـلـاـحـ الـأـوـلـىـ سـيـتـأـكـدـ أـنـ الـدـوـلـةـ تـنـفـذـ كـأـيـ تـلـمـيـذـ نـجـيـبـ تـعـلـيـمـاتـ كـبـارـ الـمـفـتـرـسـيـنـ الـدـوـلـيـيـنـ وـتـمـهـدـ الـطـرـيـقـ أـمـاـ الـمـفـتـرـسـيـنـ الـمـلـحـلـيـنـ لـخـوـصـصـةـ تـعـلـيـمـ الـمـغـارـبـ،ـ وـمـاـ تـلـكـ

الـخـطـطـ الـتـيـ تـطـلـقـهـ وـتـمـلـأـ بـهـاـ الـبـلـادـ ضـجـيجـاـ،ـ إـلـاـ طـرـيـقـ حـرـبـيـةـ لـإـسـكـاتـ الـأـصـوـاتـ وـالـضـمـائـرـ الـتـيـ تـدـقـ نـاقـوسـ الـخـطـرـ حـولـ الـمـدـرـسـةـ الـعـمـومـيـةـ،ـ وـالـدـلـلـيـلـ عـلـىـ نـجـاحـ خـطـةـ الـدـوـلـةـ لـخـوـصـصـةـ الـتـعـلـيـمـ هـوـ ذـلـكـ التـنـامـيـ الـصـارـوـخـيـ لـأـفـوـاجـ الـمـغـارـبـ الـهـارـبـيـنـ إـلـىـ الـتـعـلـيـمـ الـخـاصـ وـلـوـ كـانـتـ بـهـمـ خـصـاصـةـ.

يـبـدـوـ أـنـ الـمـغـارـبـ أـمـامـ حـلـانـ لـاـ ثـالـثـ لـهـمـ لـإـنـقـاذـ الـتـعـلـيـمـ مـنـ هـذـهـ الـكـوـارـثـ غـيرـ الطـبـيـعـيـةـ الـتـيـ ضـرـبـتـهـ:ـ

الـحـلـ الـأـوـلـهـوـ لـجـوـهـ الـمـغـارـبـ لـإـنـقـاذـ تـعـلـيـمـهـ إـلـىـ تـفـعـيلـ الـفـصـلـ 40ـ مـنـ الـدـسـتـورـ الـمـغـارـبـيـ:ـ "ـعـلـىـ الجـمـيعـ أـنـ يـتـحـمـلـ،ـ بـصـفـةـ تـضـامـنـيـةـ،ـ وـبـشـكـلـ يـتـنـاسـبـ مـعـ الـوـسـائـلـ الـتـيـ يـتـوـفـرـونـ عـلـيـهـاـ،ـ التـكـالـيفـ الـتـيـ تـتـطـلـبـهـاـ تـنـمـيـةـ الـبـلـادـ،ـ وـكـذـلـكـ تـلـكـ النـاتـجـةـ عـنـ الـآـفـاتـ وـالـكـوـارـثـ الـطـبـيـعـيـةـ الـتـيـ تـصـبـبـ الـبـلـادـ،ـ يـجـبـ أـنـ يـعـلـمـنـوـاـ يـأـسـهـمـ الـتـامـ وـالـرـسـمـيـ مـنـ تـدـبـيـرـ الـدـوـلـةـ لـهـذـاـ الـقـطـاعـ؛ـ ثـمـ التـعـاطـيـ مـعـهـ عـلـىـ أـسـاسـ أـنـهـ قـطـاعـ "ـمـضـرـوبـ"ـ،ـ أـنـ يـشـمـرـ الـمـغـارـبـ كـشـعـبـ عـلـىـ سـوـاـعـدـهـمـوـيـضـعـوـاـ أـيـدـيـهـمـ فـيـ جـيـوبـهـمـوـيـجـهـوـاـ تـفـكـرـهـمـ لـإـلـاـحـ مـاـ أـفـسـدـهـ الـزـمـنـ وـالـمـفـسـدـوـنـ،ـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـعـلـمـنـوـاـ حـالـةـ اـسـتـنـفـارـ قـصـوـيـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـضـمـيرـ وـالـحـسـ الـوـطـنـيـ أـمـامـ قـضـيـةـ مـصـرـيـةـ وـلـهـ حـقـ الـأـسـبـقـيـةـ عـلـىـ كـلـ الـقـضـاـيـاـ.

الحل الثاني هو أن ينزل هذا الشعب عن بكرة أبيه (آباء وطلبة علم وكافة الفاعلين التربويين) إلى الشارع مندداً بالسياسات التعليمية وباستغفاله والاحتياط على جيبيه، عليه أن ينزل ولا يغادر هذا الشارع إلا بعد أن يستعيد حقه في تعليم عمومي جيد والذي يجسّد حقه الطبيعي في المواطننة والكرامة، على الدولة أن تجعل من مجال التعليم "منطقة ملغمة" أمام الدائنين الدوليين ومصاصي جيوب المغاربة المحليين، المواطن المغربي يجب ألا يغادر المدرسة العمومية في اتجاه الخاصة مجبراً بل مُخيَّراً، علينا أن نصرخ عاليًا مطالبين بمحاسبة كل المسؤولين عن هذه الكوارث التي ضربت تعليمنا، لأن إقالتهم أو تغيير مناصبهم فقط هو مجرد تمويه؛ فوحده مبدأ ربط المسؤولية بالمحاسبة هو ما سيضمن لنا أن أي مسؤول سيتحسس رقبته ورصيده البنكي جيداً قبل الإقدام على التلاعب بمصير أمة.

لسنا ننثر الورود ونرش العطور على باقي الفرقاء في الوقت الذي نحمل فيه الدولة كامل المسؤولية، الجميع يتتحمل وزر هذه الكوارث ، وإن كان بدرجات متفاوتة، أدناها الصمت المطبق الذي لجأ إليه المثقف المغربي وغالبية الآباء، مفضلين الواقع بين فكي التعليم الخاص؛ الذي يبقى حلاً فردياً وكارثياً بدوره، عوض استئثار قواهم للدفاع عن حق أبنائهم، أقل تداعياته أنه سيعمق فجوة الفوارق الطبقية بين المغاربة وسيخلق جيلاً من "الضباع" المستعدة لإعادة إنتاج نفس الأعطال لحفظ موقعها داخل المجتمع المغربي.

المآل الدرامي الذي انتهت إليه الخطط الإصلاحية للتعليم يدل بشكل قاطع على أن المسؤولين عنها كانوا "يتعلمون الحلاقة في رؤوس المغاربة" ، والدليل على ذلك أن وزير التعليم ورئيسه المباشر ما فتن يعلن كل منهما وأكثر من مرة؛ صراحة وضمنياً أن الدولة قد نفست يدها من هذا القطاع غير المنتج، فتعاطيها معه لا يتجاوز تعاطيها مثلاً مع "مشكلة الانقراض التي تهدد طائر أبو منجل في غابة بوسكورة" ...هذا الاستخفاف بملف مصيري منطوقه بتصريح العبرة هو: "عوموا بفحركم آلمغاربة.." و "لي ماعجبو حال يتلاح للخاص"

فهل سيقبل المغاربة بوضعية الرعاية الراضية والمتأنقمة مع المذلة، ويستمرون في استهلاك شعارات الدولة، من قبيل الحكماء وجودة التعليم ومدرسة النجاح أو القرب والرؤية الاستراتيجية، والتي لا تكف عن تكرارها عبر تقارير المجالس وتصريحات الوزراء والمسؤولين المتعاقبين على تدبير القطاع؛ حتى فقدت كل معانيها وهي بلا أي أثر يذكر على واقع المدرسة العمومية المغربية، أم أن هذا الشعب سيقرر أن يسقط هذا الوضع ومن ثم يسترجع حقه في المواطننة الكاملة عبر الحصول على تعليم عمومي لائق جمِيع المغاربة؟

الكرة في ملعب الشعب الآن، فهل يتلقفها ؟؟